المجلس الإسلامي العلمائي
Olama Islamic Council

ساعة أوبة

قصة تسلط الضوء على رحلة من رحلات الإنابة والتوبة

بقلم الشيخ حسين الطويل

الناشر: المجلس الإسلاميّ العلمائيّ
المراجعة اللغويّة: شعبة القلم

المجلس الإسلامي العلمائي
Olama Islamic Council

ساعة أوبة

قصة تسلّط الضوء على رحلة من رحلات الإنابة والتوبة

بقلم الشيخ حسين الطويل

www.Olamaa.net

الفهرس

❖ المقدمة ٤
١- آخر الأسبوع ٥
٢- مَضْغ الشائعات ٥
٣- مع النَّفس ٦
٤- ثمرة الصبر ٩
٥- للوطن حقّ ١٠
٦- لقاء غير مرتقب ١١
٧- أسباب ومسبّبات ١٥
٨- في رحاب طَيبة ١٦
٩- فرصة بلا ميعاد ١٧
١٠- ختامها مسك ٢٢

المقدمة

لقد جاء شعار المجلس الإسلاميّ العلمائيّ لنداءات التوبة في هذا العام؛ ليتناول (العلاقات المحرّمة هتك ودمار)؛ ذلك لأنّ مثل هذه العلاقات هي هتك للأعراض، وتمريغ للأنوف في مستنقعات العار والشّنار، ودمار يضرب كلّ مقوّمات الإنسانيّة؛ ليجعلها في الحضيض المتسافل، وإغراقها في غياهب اللّذة الحيوانيّة التي يأنف كلّ ذي عقل وبصيرة أنْ يمرّ بفضائها فضلاً عن ولوجها.

فها هي نداءات التوبة على أعتاب شهر رمضان المبارك تفتح أبوابها، بل أحضانها لتستقبل أفواج المنيبين، وقوافل المنتبهين من غفلتهم الذين عقدوا العزم بجدّ وإصرار على التخلّص من أدران الماضي، وليفتحوا بذلك حاضرًا ويواصلوه بمستقبل جديد يحمل كلّ معاني الاستغفار وارتداء أثواب الإيمان الناصع.

ومن هنا كانت (سَاعَةٌ أَوْبَةٍ)؛ لتعالج لونًا من ألوان العلاقات المحرّمة، ولتساهم في بلورة خطّ الإنابة الذي يجب أنْ يكون جليًّا لدى العبد الذي يبتغي رضا الله سبحانه وعفوه.

في ساعةٍ من ساعاتِ اليقظةِ مِن سباتٍ قد خيّمَ على العقلِ فترةً، فجرَّها نحوَ الهمِّ بالخطيئةِ وتمرُّدِها على أحكامِ اللهِ، وخروجِها عن رِبْقَةِ العبادةِ هتفَ القلبُ بندائِهِ في الأسماعِ، فأشرقتِ النّفسُ، وعادَ العقلُ إلى صوابِهِ.

١- آخرُ الأسبوعِ

ارتفعَ ضجيجُ الموظفينَ في أروقةِ مؤسستِهم وهمْ يغادرونَها لقضاءِ إجازةِ آخرِ الأسبوعِ، وعلى مرآهم ومسمعِهم جميعًا نادت مديرةُ القسمِ ومن دونِ مقدِّماتِ المهندسَ باقرًا قائلةً والغضبُ مِلْءُ مآقِيها: لقد قرّرَ مجلسُ الإدارةِ إيقافَكَ عن العملِ، بل قرّر إقالتَكَ.

فابتسمَ باقرٌ، ولمْ يَنْبِسْ بِبِنتِ شِفَةٍ!

وفي غَمرةِ هذينِ الموقفينِ بينِ موقفِ مديرةِ القسمِ وموقفِ باقرٍ تهامسَ الموظّفونَ عن سببِ إيقافِ باقرٍ عن العملِ بمثلِ هذهِ الصورةِ المفاجئةِ ومن دونِ مقدّماتٍ، وهمُ الذين يعرفونَه بالجدِّ والنشاطِ، والالتزامِ الدَّؤوبِ.

أمّا باقرٌ، فلمْ يعبَأْ بثورةِ مديرةِ القسمِ، وطَأطأَ برأسِهِ، ومضى دونَ اكتراثٍ، وهو يُردّدُ بصوتٍ قد سمعَهُ الجميعُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ❖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١).

٢- مَضْغُ الشائعاتِ

بدأتِ الشائعاتُ تلوكُها الأفواهُ عن سببِ قرارِ الإدارةِ المفاجئِ بإقالةِ باقرٍ من موقعِ عملِهِ، وراحَ كلُّ واحدٍ يضعُ الأسبابَ من تلقاءِ نفسِهِ؛ ليَرْسِمَ طريقًا نحوَ تحليلِ ما جرى، وليصلَ هُوَ الآخرُ إلى تلك النتيجةِ التي وصلتْ إليها الإدارةُ.

وأصبحتْ إقالةُ باقرٍ حديثَ الساعةِ لدى موظّفي تلكَ المؤسسةِ، بلْ وتسرّبَ هذا الخبرُ إلى الصحافةِ التي تتسقّطُ الأخبارَ؛ لتجعلَ مِن سَمِّ الخياطِ (٢) فوّهةَ بركانٍ، فساعدَ ذلك على انتشارِ الخبرِ واتساعِ رقعتِهِ، فتفاعلَ معهُ بعضُ المهتمينَ بمثلِ هذهِ الإجراءاتِ التّعسفيّةِ، وراحُوا ينبشونَ همُ الآخرونَ أسبابَ ودواعيَ ذلك، فطفحَ الكيلُ بتلكَ المؤسسةِ، فأعادتِ التحقيقَ حولَ قرارِها الذي جاءَ من خلالِ موقفٍ ارتجاليٍّ اتخذتهُ من دونِ

حسـابٍ للعواقبِ، ولم تَخَلْ أنّ الأمورَ ستصلُ إلى هذا المنحَى، فاستُدعِيَتْ مسؤولةُ القسمِ سـلوى، وجرَى معها التحقيقُ في مُلابسـاتِ القضـيّةِ في غرفةٍ مُغلقةٍ، وأسـفرَ عن قرارِها بإعفاءِ سلوى من وظيفتِها إخمادًا لِمَا اقترفَتْهُ من خطأٍ فَادحٍ من خلالِ نُفوذِها في الإدارةِ، واسـتغلالِ منصـبِهَا لإصـدارِ مذكرةِ إقالةٍ لموظفٍ من دونِ حتى جلسـةِ تحقيقٍ؛ لكشـفِ ملابساتِ الموضوعِ، على أنْ يتمَّ إرجاعُ المهندسِ باقرٍ إلى موقعِهِ إذا رَغِبَ في ذلكَ!

حاولتْ سـلوى أنْ تشـرحَ موقفَها؛ لتتراجعَ الإدارةُ عن قرارِ إقالتِها، ولكن لا مَنَاصَ، فقد وقعَ الفأسُ في الرّأسِ، وَجَرَّتْ معها أذيالَ الخيبةِ.

٣- معَ النَّفسِ

رَجَعَ باقرٌ إلى منزلِهِ لا يَلْوِي على شيءٍ، فأغلقَ عليه بابَ غرفتِهِ، واستغرقَ في حديثٍ طويلٍ مع نفسِـهِ، وراجعَ حسـاباتِهِ، وحاولَ قدرَ المسـتطاعِ أنْ يُوْجِدَ المبرّراتِ التي على أساسِـهَا تشـجّعتْ سلوى بطلبِها الجريئِ الخارجِ على قوانينِ الشـرعِ الحنيفِ، والعرفِ الاجتماعِيِّ المحترمِ!

فتسارعَتْ نبضاتُ قلبِهِ، وبدأ جبينُهُ يَتَفَصَّدُ(٣) عَرَقًا، فوجدَ أنَّ حالةَ الانفتاحِ غَيرِ مَوزونِ العواقبِ، والتسـاهلَ والتَّسَـيُّبَ في فتحِ العلاقاتِ بين الجنسـينِ من دونِ حدودٍ ولا ضوابطَ من ضمنِ الأسبابِ لتدميرِ المجتمعاتِ.

فهلْ لي على خارطةِ هذه المؤسسةِ التي أُقِلْتُ منها اليومَ ضلعٌ في هذه القضيةِ؟

لا، لا وإنّما أنا أتحدّثُ بحدودٍ حتى مَعَ سلوى!

وحاولَ أنْ يُوجِدَ مُبَرِّراتٍ؛ ليريحَ ضميرَهُ، وليُبْعِدَ العتبَ واللَّومَ عن مواقفِهِ.

فَبَدَأتْ نفسُهُ تُدَغْدِغُ مشاعِرَهُ، وتطرَحُ عليهِ عِتَابَها بالتَّسويلِ: مَاذا لَو استجبْتَ لِطلبِها؟

أليستْ هِيَ فتاةٌ في رَيْعانِ الشَّبابِ؟

أليستْ هِيَ مسؤُولتُكَ؟

فلـو لبيّتَ رغبَتَها لأخَذَتْ بِك نَحوَ مجدٍ ما تطمحُ إليهِ، ولارْتَقَتْ بكَ سَـلالِمَ المناصـبِ بِلا تَعَبٍ ولا نَصَبٍ.

فَكِّرْ في الأمرِ، فَهُوَ لقاءُ ساعَةٍ وسينقضِي وكأنَّ شيئًا لم يكنْ، ويمكنُكَ التوبَةَ بعدَهُ!

ومضتْ تلك النّفسُ تَرْسِمُ له أحلامًا كالسرابِ، فَغدا هُوَ ظمآنُ مُتأرجِحًا بين الاستسلامِ لنفسِهِ، وبينِ الانشدادِ والانقيادِ إلى عقلِهِ وعقلِهِ ومبادئِهِ.

لقد اهتزَّ أمامَ ما تبديهِ نفسُهُ من تنميقٍ وتزويقٍ، ودخلَ في مساوماتٍ معها بتجاذبِ الحديثِ، إلا أنّهُ وقبلَ أنْ ينصاعَ إلى تسويلِها، أو يستسلمُ لرغبتِها واتّباعِ خطراتِ الشيطانِ على يديها قد طَرَقَ أسماعَهُ صوتُ أُمِّهِ وهَيَ تناديهِ: بُنيّ باقرُ.

فأجابَها وكأنّهُ يستيقظُ مِن رَقْدَةٍ: نَعمْ يَا أُمَّاهُ؟

- ألنْ تُوصِلَني الآنَ إلى حيثُ إقامةُ ذِكرى شهادةِ إمَامِنا الكاظمِ عليه السلام، فاليومُ ذِكرى شهادَتِه عليه السلام، وأخشى أنْ يفوتَني إحياؤُهَا.

فَهَزَّ اسمُ الإمامِ الكاظِمِ عليه السلام كيانَه، فانتفضَ من مكانِهِ، وحتّى لا تَرى، أو تشعر أُمُّهُ بارتباكِهِ أجَابَها على الفَوْرِ: حسنًا، حسنًا، سأكونُ بعدَ دقائقَ جاهزًا لإيصالِكِ إلى هُناكَ.

- حسنًا يا بُنيّ، فأنا بانتظَارِكَ.

لقد ألهبَ ذِكْرُ شهادَةِ الإمامِ الكاظِمِ عليه السلام مشاعِرَهُ، وتَذَكَّرَ عَلى الفَوْرِ مُعَاناتِهِ عليه السلام حتى وَهُوَ في سجنِهِ بين أيدِي سَجّانيهِ الشِّدادِ الغِلاظِ – حيثُ سَجنَتْهُ السُّلْطَةُ العباسيَّةُ آنذاكَ وَسَلَّمَتْهُ إليهم لِمَا كان يُمَثِّلُهُ عليه السلام من قَلَقٍ لهَا-، وكيفَ كانتْ مُخططاتُ هارونَ الرّشيدِ للنَّيلِ من مقامِ الإمامِ عليه السلام التي لَم تُجْدِهِ نَفعًا.

فلقد أَنفذَ لَه في يومٍ من الأيامِ وهُوَ في سجنِهِ وفي ذَرْوَةِ عِبادتِهِ جاريةً، فقالَ عليه السلام لخادمِ الرّشيدِ: لا حاجةَ لي في هَذِهِ، وَلا في أمثالِها.

فاستطارَ هارونُ غَضَبًا، وقالَ لِخادمِهِ: ارجعْ إليهِ، وقُلْ لهُ: ليس برِضَاكَ حبَسنَاكَ، ولا برِضاكَ أخذنَاكَ، واترُكِ الجاريَةَ عندَهُ وانْصَرِفْ.

وبَعْدَ مُدَّةٍ أنفذ هارونُ الخادمَ إلى السِّجْنِ؛ لِيَتَفَحَّصَ عن حالِ الجاريَةِ، فَرَآها الخادِمُ ساجدةً لربِّها لا تَرْفَعُ رأسَها وَهِيَ تقولُ: قُدّوسٌ سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ.

فجاء الخادمُ إلى الرشيدِ راكضًا لاهثًا، وأَخبرَهُ بِمَا رَأى، فقالَ هَارونُ: سَحَرَها - واللهِ - موسى بن جعفرٍ بسحْرِهِ، عَلَيَّ بِهَا.

فَأُتِيَ بِها وَهِيَ تَرْعدُ شاخصةً نَحْوَ السماءِ بِبصرِها.

فقال هارونُ: مَا شأْنُكِ؟

قالت: شأني الشأنُ البَدِيعُ، إنِّي كُنتُ عندَهُ واقفةً، وَهُوَ قائمٌ يُصلِي ليلَهُ ونَهَارَهُ، فَلمّا انصرفَ عن صلاتِهِ بوجهِهِ وَهُوَ يُسبّحُ اللهَ ويُقدّسُهُ قُلتُ: يا سيّدِي هَل لَكَ حاجةٌ أُعْطِيكَهَا؟

قال: ومَا حاجَتِي إليكِ؟

قلتُ: إنِّي أُدْخِلْتُ عليكَ لحوائِجِكَ.

قال: فَمَا بالُ هؤلاءِ؟

فالتفتُ فإذا روضةٌ مُزهرةٌ لا أبلغُ آخرَهَا من أوَّلِهَا بِنظرِي، ولا أوَّلَها من آخِرِها، فيها مجالسُ مفروشةٌ بالوشِيِّ والدِّيباجِ، وعَليها وُصفاءُ، ووصائِفُ لم أرَ مثلَ وجوهِهِم حُسنًا، ولا مثلَ لباسِهِم لِباسًا، عليهمُ الحريرُ الأخضرُ، والأكاليلُ والدّرُّ والياقوتُ، وفي أيديهِمُ الأباريقُ والمناديلُ ومن كلِّ الطّعامِ، فَخَرَرْتُ ساجِدَةً حتّى أقَامَني هَذا الخادمُ، فَرَأَيْتُ نَفْسِي حيثُ كنتُ.

فقال هارونُ: يا خبيثةُ، لَعَلَّكِ سَجَدْتِ، فَنِمْتِ، فَرَأَيْتِ هَذا في مَنَامِكِ؟

فقالتْ بِلُغَةِ الوَاثِقِ: لا واللهِ يا سيِّدِي، فَقَبْلَ سُجُودِي رأيتُ ذلك، ولِذا فَقَدْ سَجَدْتُ مِن أجلِ مَا رأيتُ.

فقال الرّشيدُ لخادِمِه: اقبضْ هَذِهِ الخبيثةَ إليكَ، فَلا يَسمعُ هَذا مِنْها أحدٌ(٤).

ومن هنا ثابَ باقرٌ إلى رُشْدِهِ، وأَلْجَمَ نَفْسَهُ مِن محاولةِ جِمَاحِهَا(٥) بذلكَ الدّرسِ الماثلِ في قلبِ صفحاتِ التاريخِ حيثُ إنَّ الإمامَ عليه السلام يُعطِي معنى الصبرِ والصمودِ وَهُوَ في أَحْلَكِ ظُروفِ السِّجْنِ، فَلَمْ يُعِرْ بالاً واهتمامًا لتلكَ الجاريةِ التي جاءتْ مِن أجلِ مهمّةٍ مُخَطَّطٍ لَهَا في جُنْحِ الظَّلامِ مِنَ السُّلْطَةِ الحاكمَةِ، ولكن وبالرّغمِ من كلِّ ذلكَ فقد ارتَدَّ الأمرُ كحَجَرَةٍ أُلقمتْ فم ذَاكَ الحاكمِ.

لقدْ غَيَّرَ الإمامُ عليه السلام سُلوكَ الجاريةِ العمليِّ بما تَرتئيهِ إرادةُ السماءِ.
فَقامَ باقرٌ من مَكانِهِ؛ لِيُجيبَ ويُلبيَّ ما طَلَبَتْهُ منهُ أُمُّهُ، وَهُوَ يَقولُ: إذا كانَ الإمامُ عليه السلام قُدْوتَنا وَهُوَ في سجنِهِ قد غَيَّرَ من أمرِ تلكَ الجاريةِ، فَأليسَ بِمَقْدُورِنا ونحنُ نَشمُّ عبقَ الحريّةِ أنْ نُغَيِّرَ من واقِعِنا، وأَنْفُسِنا؟
وقبلَ أنْ يغادرَ غُرْفَتَهُ تَوَجَّهَ بالنداءِ إلى نفسِهِ قَائلاً: لقد صَدَقَ مَنْ قال: (مَن تَعلَّقَ قَلْبُهُ بالدُّنْيا تَعَلَّقَ مِنْها بِثلاثِ خصالٍ: هَمٌّ لا يَفْنَى، وأَمَلٍ لا يُدْرَكُ، وَرَجَاءٍ لا يُنالُ)(٦).

٤- ثمرةُ الصبرِ

مضتْ أشهرٌ عَلَى حادِثَةِ الإقالةِ، وخلالَ هذهِ الفترةِ لم يترُكْ باقرٌ الوقتَ يذهبُ سُدى، فقد بادَرَ إلى تقديمِ أوراقِهِ لدى مؤسَّساتٍ أخرى، وصارَ يَجتَرِعُ الهمَّ في زَمنٍ باتَتْ لقمةُ العيشِ، والحصولُ على وظيفةٍ كالكبريتِ الأحمرِ، ولكنّ عوامِلَ الصبرِ والأَناةِ(٧)، والتّوكلِ على اللهِ كانت بمثابةِ الرّافدِ من أجلِ الوقوفِ في وجهِ القنوطِ، وتَسرُّبِ اليأسِ إلى قلبِهِ.

لقد انتظرَ بضعةَ أشهرٍ، وكأنّ كلَّ شهرٍ منها يُمثِّلُ سنةً في حسابِهِ للأيامِ، ذلكَ لأنّهُ الشابُّ الذي عهدَ إليهِ القدرُ بتصريفِ شؤونِ والديهِ الكبيرينِ في السِّنِّ، فأصبحَ هُوَ مَن يُقدّمُ لهما احتياجاتِهما، ويسهرُ على تذليلِ صعابِها حتى جاءَه قرارُ الإقالةِ من منصبِهِ الذي فتحَ له بابًا من الألمِ والعذابِ، وكادَ أنْ يكونَ القَشّةَ التي ستقصمُ ظَهْرَهُ.
ولكنّ صبرَهُ، وتفانيهِ في البقاءِ على مبادئِهِ كانا هما السَّلْوةَ لديهِ في أزمتِهِ التي يعيشُها.
وبمَا أنَّ دعاءَ الأمِّ مستجابٌ، فقد طَلَبَ مِنها أنْ تدعُو لهُ في كلِّ مواطنِ الدّعاءِ؛ كي يَثْبُتَ في محطاتِ هذا الزّمنِ على مبادئِهِ أكثرَ فأكثرَ.
لقد عانى وصَبرَ، حتى ظَفَرَ وحَالفَهُ الحظُّ أخيرًا بالحصولِ على عملٍ خاصةٍ وأنَّهُ يَحملُ شهاداتٍ تُؤهِّلُهُ إلى الانخراطِ في أعمالٍ حيويّةٍ، وسَاقَهُ القدرُ إلى أَعْتابِ مؤسَّسةٍ للتوِّ تَعِدُّ العِدَّةَ لبناءِ قواعِدِها الوظيفيّةِ، وانتخابِ كادرِ عملِها، فعُيِّنَ مسؤولَ قسمٍ بعدَما عَرَضَ شهاداتِهِ العلميّةَ، وسنواتِ خِبرتِهِ، وكلَّ ما يَتعلّقُ بإجراءاتِ الانضمامِ إلى الوظيفةِ الجديدةِ.

٥- للوطنِ حقٌّ

استقرّتِ الأوضـاعُ لباقرٍ، واستَتَبَّ الأمرُ لهُ، وراحَ يعملُ بجدٍّ كسابقِ عهدِهِ، فارتقى سلالمَ التّرقيةِ حتى أصبحَ وفي فترةٍ وجيزةٍ المديرَ المساعدَ للمؤسّسةِ، وحينما استقرَّ على كرسيِّهِ الجديـدِ راحَ يُـردِّدُ قولَهُ تَعَالى: ﴿ وَمَن يَتَّـقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًـا ❖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِـبُ ﴾، وغَرِقَ في معاني هذهِ الآيةِ الشـريفةِ، وقد بَدا على مُحيّاهُ الرِّضـا بما سَـاقَهُ اللهُ سـبحانَه لهُ، ولمْ تفترْ(٨) شفتاهُ عن الشّكرِ والحمدِ لهُ، وغَرِقَ بعدَها في نشوةِ آلاءِ اللهِ سبحانَهُ بِنَفْسٍ راضيةٍ بِقَدَرِها.

وبالرّغـمِ مـن كلِّ ذلك لمْ ينسَ همومَ وطنِهِ، ومـا يعانيهِ مواطنُوه من تَفشِّـي البّطالةِ بين صـفوفِ أبنائِهِ وشـبابِهِ، فانقدحتْ فكرةٌ في ذهنِهِ تهدِفُ إلى اسـتثمارِ الطّاقاتِ الوطنيّةِ وذلك عن طريقِ الإعلانِ في الصُّحفِ والجَرائدِ المحليّةِ كما تجري العادةُ، وتمَّ أخذُ القرارِ في ذلك من قبلِ مجلسِ الإدارةِ، وانتشرَ الإعلانُ في الصحفِ كالعطرِ في النّسيمِ.

❖ ❖ ❖

جاءتِ السواعدُ الوطنيّةُ تترى تُقدِّمُ أوراقَها الثّبوتيَّةَ، وجرتِ المقابلاتُ؛ لتصنيفِ الكوادرِ حسـبَ الاحتياجاتِ، وجَرْيًا على عادةِ بعضِ المراجعـينَ الذين يهوونَ القَفْزَ على مجرياتِ الأمـورِ وقنـواتِ القانونِ طلبتْ إحـدَى المُراجِعَـاتِ اللّقاءَ بأحدِ المسـؤولينَ الكِبـارِ مُعْتَدَّةً بِنَفْسِها، وأَصَرَّتْ على ذلك أيّما إصرار!

وبما أنَّ القوانينَ كانتْ واضحةً، فقد أَصَرَّ المسؤولُ عن التّوظيفِ بِعدمِ السماحِ لها بمجاوزةِ القانونِ، فَحَدَثَتْ جَلَبَةٌ وصـياحٌ وصلَ صـدَاهَا إلى مكتبِ المهندسِ باقرٍ، فضغطَ باقرٌ على أزرارِ جهازِ الإرسالِ الصوتيِّ، سَائلاً: مَا الخَطْبُ؟
ولِمَاذا كلُّ هذا الصياح؟
فَأَفْهَمَهُ المسؤولُ عَنِ التّوظيفِ سببَ ذلك، فَأَذِنَ لهُ باقرٌ بإدخالِ صاحبَةِ المُشْكِلَةِ.

٦- لقاءٌ غيرُ مرتقب

حينما يَرَى أَيٌّ منّا أمرًا غيرَ مُتَوَقَّعٍ، وَلا يَخْطُرُ بِبالِهِ أَبدًا يُصابُ بالدّهشَةِ والذُّهولِ، وتَموتُ الكلماتُ على شفتيهِ بُرهةً من الوقتِ، وهذا ما جرى بالضبطِ لصاحِبَةِ المشكلةِ!

لقد دخلَتْ وكلُّها انفعالٌ وتعالٍ في نفسِ الوقتِ، ولكن لمّا رأتْ أنَّ الجالسَ وراءَ المكتبِ هُوَ باقرٌ، فقد انكمشَتْ في مكانِها، وعَلائمُ الدّهشةِ تَرتَسِمُ على ملامحِ وجهِها.

فقامَ باقرٌ بكلِّ احترامٍ قائلاً: تَفضلي يا سلوى!

فَغَرِقَتْ سلوى خَجلاً في مكانِها وتَسَمَّرَتْ، وراحتْ تُتَمْتِمُ قائلةً: إنَّ اللّهَ يُمهلُ، ولا يُهملُ.

وبِدماثَةِ أخلاقِهِ راحَ باقرٌ يُحَيِّيها بِكلِّ احترامٍ؛ حتى اطمأنّتْ وهَدَأ رَوعُها، وانزاحَتْ عنها غمامَةُ القلقِ والدهشةِ، فَجَلَسَتْ.

استقرَّ بِها المكتبُ، وفي ساعةِ استغرابٍ قالتْ بصوتٍ مسموعٍ: سبحانَ الذي جَعَلَ المسؤولينَ بالأخطاءِ عاطلينَ، وجَعَلَ الموظّفينَ بِالمُثابَرةِ مسؤولينَ!

- تفضَلّي يا سلوى، ومَا المشكلةُ التي ثارتْ على أساسِها الضوضاءُ في الخارجِ؟

- تعْرِفُني جيّدًا يا باقرُ، وكيف أنَّ طالِبي الوظيفةَ كانوا يَحلَمُونَ بلقاءٍ معِي في مؤسَّستِنا السابقةِ، ولمّا جِئتُ اليومَ؛ لأقدِّمَ أوراقِي هَزَّني الموقِفُ، فلمْ أستطِعْ تَحمُّلَ ذلك، فقلتُ بِأَنَفَةٍ: أُريدُ مَسؤولاً؛ كي أَتَحَدَّثَ معهُ.

فقال باقرٌ مندَهِشًا: وأينَ أنتِ من وظيفَتِكِ السّابقةِ؟

فقالتْ مبتسمةً ابتسامةً يَنُمُّ(٩) من وراءِها عن ندمٍ وحسرةٍ بَعدَ لَأْيٍ: لقد أخضعَتْني الإدارةُ إلى تحقيقٍ على هامشِ فصلِكَ التَّعَسُّفِيّ من العملِ من جرّاءِ نفوذِيّ، وفُصلتُ أنا الأخرى.

وحينما مكثتُ في البيتِ مضتْ تلك الأيامُ بِلا طعمٍ لَمَّا سوّلتْ لي نفسيّ أمرًا، وكِدتُ أَجِنُّ من الفراغِ الذي داهمني بعدما كنتُ الآمرةَ والنّاهيَةَ في موقعي الوظيفيّ، وأصبحتُ الآنَ بِلا موقعٍ، وبِلا وظيفةٍ، ويزيدُني ضميري تَقريعًا حينما أَتَذَكَّرُ كيف ساومْتُك بين ما أطمحُ

إليـهِ وبين قَطْـعِ رزقِكَ، فاختَرْتَ أنتَ عـدمَ التنازلِ عن مبادِئِكَ، وهأنـذا أذوقُ مرارَةَ ما اقْتَرَفْتَ يداي.

فقال باقرٌ: وهلْ عَرَفتِ الإدارةُ دوافعَ إقالَتِي مِنَ العملِ؟

فاسـودَّتِ الدنيـا في وجهِها، وقالتْ وكلماتُها تتحشـرجُ في حَلْقِها خَجَلاً: نَعـم، وَهُوَ الأمرُ الذي عَجَّلَ بإقالَتِي.

فقال باقرٌ: وهل أنتِ نادمةٌ على ما بَدَرَ منكِ؟

فقالت، وقد عادَتْ إليها حالةُ الاسـتعلاءِ، ونَسِـيَتْ أنَّها الآنَ لا تمتَلِكُ قَرارًا ولا مَنْصِبًا: لَو عادَ الزَّمنُ لعدتُ معَهُ إلى طلبِي!

فَجَحَظَتْ عينا باقرٍ استغرابًا، وقالَ: ألمْ تُعَلِّمْكِ الحياةُ شيئًا؟!

ألمْ تُفهِمْكِ بِأنَّ الحياةَ كلَّ يوم هِيَ في شَأنٍ؟

ألمْ تَتَفَتَّحْ في روعِكِ خاصّة بَعْدَما آلتْ إليهِ أمورُكِ: أنَّ المناصبَ لا يُمكنُها أنْ تُوْصِلَ الإنسانَ دائمًا إلى المآربِ؟

فقالت: مَا أصنعُ وقد أعجبَنِي فِيكَ ثباتُك، ورجولتُك، وقُوَّةُ شخصيّتِكَ.

هكذا همُ بعضُ الرّجالِ حيثُ يُوقِعُونَ المرأةَ في شباكِهِم، ثُمَّ يَتَنَصَلُونَ من مسؤوليَّتِهِم تِجَاهَ ذلك؛ لِيَجْعَلوها عُنْوةً الحَلَقَةَ الأضعفَ في المجتمعِ!

- وهلْ كانَ لِي ضِلعٌ فِيما بَدَرَ منكِ؟

فقالت سلوى بحزم تَشُوبُهُ مرارةٌ: بِكلّ تأكيدٍ!

- وكيفَ حَصَلَ ذلكَ منِّي؟

- حينما نَعيشُ رِجالاً ونسـاءً في مجتمعٍ وظيفيٍّ مُخْتَلِطٍ، ولا ضـوابطَ تَرعى هذا المجتمعَ، فَمَاذا نَنْتَظِرُ أنْ تكونَ هذِهِ النتيجةُ؟

- أنَـا أَعْـترِفُ معكِ، وأُقِرُّ بِأنَّ المجتمعَ الوظيفيَّ المختلطَ عِندَما لا يُراقِبُ نَفْسَـهُ سيفشُـو فيه التَّسـاهلُ، وسـتنعدِمُ فيه الحدودُ، وستتلاشى الخطوطُ الحمراءُ، ولكنَّكِ مع كلِّ ذلك أَلَمْ تطلبِي مِنِّي أمْرًا مسـتحِيلاً، وإنَّكِ لتعرفينَ جـيّـدًا بأنَّ حصـولَ ما رُمْتِيه دونَه خَرْطُ القَتَادِ(١٠)!

- ولأنَّنِـي أَعْـرِفُ ذلـك مِنك جيّدًا فقد عَمَـدتُ إلى نفـوذِي في الإدارةِ، ولفّقتُ لك تهمةً؛

لأكسرَ عنفوانَك، وأمرِّغُ صلابَتَك في التّرابِ؛ كي تُذعنَ إلى ما أَمَرْتُكَ بِهِ حينَها، وتجثُو تَحتَ قَدَمَيَّ لِتَطلبَ أنتَ مَا كُنتُ أصبُو إليهِ أنا، ولَمَّا وجَدتُكَ لا تَعْبَأ بِذلك، ولمْ تتزحزَحْ عن موقفِكَ الصّلبِ قدَّمْتُ تلك الأوراقَ المزيّفةَ، وتَمَّ اتخاذُ قرارِ فصلِك من دونِ تحقيقٍ، ولفتِ نظرٍ.

لقد استعرَ حُبُّك في قلبِي، وتَعَلَّقْتُ في غرامِكَ، وأحَاط بقلبِي مِن كلِّ جانبٍ، ورحتُ أُمنِّي نفسي بساعةِ لقاءٍ على ضِفافِ الأحلامِ المتلاشيةِ.

ولقد كان مثلُ هذا الموقفُ منك يُغريني فيك أكثرَ فأكثرَ، لأنَّ الحبَّ والهيامَ مَعَ الصَّدِّ يَتَأَجَّجَان بشكلٍ يفلتُ معه زمامُ السيطرَةِ على المشاعرِ، والأحاسيسِ.

فأطرقَ باقرٌ إلى الأرضِ لا يرفعُ طَرْفَهُ إليها مَخافةً من ربِّهِ.

فقالتْ: ارفعْ طَرفَكَ، وانظرْ إليَّ.

فبدَا باقرٌ ممتعِضًا، وقَرَّرَ أنْ يُوقِفَ ذلكَ الجِماحَ عندَ حدِّهِ، قائِلاً: أخشَى العَمَى في بصرِي، فِيمَا لا يَحِلُّ ليَ النَّظرُ إليهِ.

قالتْ: ما أحسنَ عينيكَ!

فقال: هُمَا أوَّلُ ساقطٍ على خدِّي في قبرِي.

قالتْ: ما أطيبَ ريحَكَ، وريحَ مكتبِكَ هَذا!

قال: إنَّكِ لو شَمَمْتِ رائِحَتِي بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ من موتِي؛ لَهَرَبْتِ منِّي بعدَ أنْ يَبْلَى هذا الجسدُ الخائِرُ، وتَتَفَسَّخُ أجزاؤُه، ويعودُ شيئًا لا قيمةَ لَهُ!!

وبهذِهِ الكلماتِ أعادَ باقرٌ الاستقرارَ إلى نفسِهِ، وشجَّعَهُ على الثباتِ على موقفِهِ، كما أفاقَتْ سلوى من غفلَتِها، فَتَهَدَّجَ صوتُها وكأَنَّ ذِكْرَ الموتِ بهذِهِ اللّغَةِ قد أخمَدَ ما كان يَعْتَمِلُ في قلبِها، فَزَادَهَا باقرٌ بكلماتِهِ التي تَكْشِفُ حقيقَةَ ما وراءَ هذِهِ الحياةِ من أجلِ أنْ يُذْكِي فِيها حالةَ الرّجوعِ والإنابةِ إلى ربِّها، وراحَ يُقرِعُ أسماعَها بكلماتٍ عذْبَةٍ مِحْرَابُها خَطُّ السماءِ تنسابُ من شفتينِ مؤمنتينِ لا تَرَى من هذِهِ الحياةِ سوى أنَّها قَنْطَرَةٌ نَعبرُ عليها إلى دارٍ نلقَى فيها جزاءَ أعمالِنا إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

وَجَدَ أنَّها بَدَأَتْ تخشَى مآلَ الأمورِ، واستيقظَ فيها الشّعورُ بالإثمِ، فَرَفَعَ يديه نَحوَ السماءِ

قائـلاً: إلهي! (مَن يكونُ أسـوء حالاً منّي إنْ أنا نُقلتُ على مثلِ حَـالي إلى قَبْرِي لَم أُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتِي، ولم أفَرِشْه بالعملِ الصالحِ لضجعتِي).

وَسَـاحَتْ على وجناتِهِ دُمُوعُه، وَوَاصَـلَ: (ومالي لا أَبْكِي ومَا أَدْرِي إلى ما يكونُ مصـيرِي، وأَرَي نفسِـي تُخَادِعُنِي، وأيَّامِي تُخَاتِلُنِي(١١)، وقد خَفَقَتْ عندَ رأسِي أجنحةُ الموتِ، فَمَالِي لا أَبْكِي، أَبْكِي لِخُرُوجِ نَفْسِـي، أَبْكِي لِظُلْمَةِ قَبْرِي، أَبْكِي لِضـيقِ لَحْدِي، أَبْكِي لِسـؤالِ منكرٍ ونكـيرٍ إيّايَ، أَبْكِي لِخُرُوجِـي من قَبْرِي عريانَ ذليلاً حاملاً ثقلِي علـى ظهرِي، أَنظُرُ مرّةً عن يمينِي، وأُخْرَى عن شِمَالِي إذِ الخَلائِقُ في شَأنٍ غيرَ شَأنِي لِكُلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه، وجوهٌ يومئذٍ مُسـفرَةٌ ضـاحِكَةٌ مستبشِـرَةٌ، ووُجُوهٌ يومئذٍ عليها غَـبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ وَذِلَّةٌ).

وهنا بدأتْ تنحدِرُ من مآقِي سلوى الدّموعُ، وكأنَّها تَغْسِلُ بها خَطايا وَأَدْرَانَ قد عَلِقَتْ عندَما سَـمِعَتْ تلك الكلماتِ النّورانيّةَ التي راحت تَخْتَرِقُ قلبَها، فَتَصِـلُ إلى شِغَافِهِ، فتعتصرُ ألمًا ولوعَةً.

وكيفَ لا يَتَأَثَّرُ القلبُ، ولا يخضـعُ الجَنانُ من مفرداتٍ تَرْسِـمُ خارطةَ طريقِ الإنسانِ نَحْوَ العالَمِ الآخَرِ.

ولكنّ باقرًا وبالرغمِ مِن كلِّ ذلك راحَ يَرْسِمُ المشهدَ الذي لا مَنَاصَ أنْ سيشهَدَهُ كلُّ إنسانٍ، والموقـفَ الـذي لا ريبَ سَـيَلِجُهُ عندَما تُفَـارِقُ روحُه الحيـاةَ قائلاً: (إلهي، كَأنِّي بنفسِـي قـد أُضْـجِعْتُ في حُفْرَتِها، وانصـرَفَ عنها المشـيِّعُونَ مـن جِيرَتِها، وبكَـى الغريبُ عَليها لِغُرْبَتِها، وجَادَ بالدّموعِ عليها المشـفقونَ من عشيرتِها، وناداها من شفيرِ القبرِ ذُو مودَّتِها وَرَحِمِها).

فارتفعَ نشيجُ سلوى، وقد غَدَتْ مثلَ العطشانِ الذي يُريد ماءً؛ لِيروِيَ ظَمَأَهُ، وَرَمَتْ بِعينيها جهةَ باقرٍ وكَأنَّها تَسْتَزِيدَهُ؛ لِتثوبَ إلى رشدِها، فَمَا كان مِنهُ سوى أَنْ قَال: (إلهي وسيِّدِي، ارحمْنِي مَصْـرُوعًا علـى الفراشِ تُقلِّبُنِي أَيـدِي أَحِبَّتِي، وارْحَمْنِي مَطْرُوحًا على المُغْتَسَـلِ يُغسِّـلُنِي صَـالحُ جِيرتِي، وارْحَمْنِي مَحْمُولاً قَد تَناوَلَ الأَقْرِباءُ أَطرافَ جَنَازَتِي، وارْحَمْ في ذلك البيتِ المُظْلِمِ وحشتِي، وَوَحْدَتِي، وَغُرْبَتِي).

فارتَفَعَ نَحِيبُها أكثرَ فأكثرَ!
فجأة وإذا بها تُلملمُ أوراقَها من بين يدي باقرٍ، ورَمَقَتْهُ بنظرةٍ لها مغزى، وسارعتْ بعدَها بالخروجِ، فَنَادَاها باقرٌ ولكن دون جدوى، فقد غَادَرَتْ مكتبَهُ من دونِ أنْ تَلْتَفِتَ إلى نِدَائِهِ.
فأطلقَ باقرٌ عنانَ تَفْكِيرِهِ فِيما جَرَى، وَرَاحَ يَتَساءَلُ فِي نَفْسِهِ: هَل قَسَوْتُ عَلَيْهَا؟
هَلْ جَرَحْتُ مَشَاعِرَهَا؟
وصَارَ يُجيبُ عن ذَلِك: وَلَكِنَّنِي لَمْ أَقْسُ عَلَيهَا، وَإِنَّمَا جَعَلْتُ النّقَاطَ على الحروفِ من أجلِ أنْ تَرْجِعَ إلى ذَاتِها؛ لِتَعْرِفَ مَوَاضِعَ الخَلَلِ التي ارْتَكَبَتْهَا، وَلم أجرحْ مشاعِرَهَا، وَإِنَّما أَيْقَظْتُ فيها مشاعرَ الإِنَابَةِ والتوبةِ.

٧- أسبابٌ ومسبِّباتٌ

إنَّ ما أَبَاحَتْ بِهِ سلوى مِن دواعٍ وأسبابٍ ما يُفضِي إليه ذلك التساهلُ في المجتمعِ الوَظِيفَيّ بين الرّجلِ والمرأةِ هُوَ أمرٌ قد جَعَلَ باقرًا يَقِفُ أَمَام نَفْسِهِ مُحَاسِبًا وَمُعَاتِبًا، فَهُوَ أيضًا من جِنْسِ الرّجَالِ الذينَ لا شَكَّ يُخْطِئونَ!
وأخذَ يُعْرِضُ مُسلسلَ الأيامِ السابقةِ على حَادِثِ الإِقالَةِ، وَهَلْ كان لَه يدٌ فِيما جَرَى حتى طَفَحَ بسلوى الكيلُ؟

تَصَفَّحَ تاريخَ تلك الأيام، فَتَوَصَّلَ إلى أنّه أَحَدُ الضَالِعينَ في تَرْسِيم ذلك الواقعِ المُؤْلِم الذي تَعِيشُهُ مُؤسستُه السابقَةُ حيثُ إنَّ استعمالَ الانترنتِ ووسائلَ الاتصالِ المختلفةِ تَحتَ مُسمى إِذْكَاءِ العلاقاتِ الاجتماعيّة نَحْوَ نَسِيجٍ مَتَرَابِطٍ مُتَكَاتِفٍ مِنْ أَجْلِ الدَّفْعِ بِعَجَلَةِ العَمَلِ إلى الأمامِ كانَ استعمالَ حقٍّ يُرادُ بِهِ باطلٌ في أكثرِ مَواطِنِهِ ومَواضِعِهِ!!

وَغَدَتْ موجَةُ الرّسائلِ الإلكترونيّةِ من خلالِ الكلماتِ غَيرِ المدروسةِ، وتلك الصورِ التي تُعطِي أكثرَ مِن معنى تُمثِّلُ حالةَ السقوطِ في طريقِ الهاويةِ حيثُ تَمَرَّدَتْ على المبادِئ، والأعرافِ العاقلةِ التي تُنَظِّمُ حركةَ الرجلِ والمرأةِ؛ ليسيرَ كلٌّ واحدٍ منهما في خَطِّهِ

المرسـوم له على خارطَةِ هذِهِ الحياةِ من أجلِ التكامُلِ البَشـرِيِّ، وَوَضْعِ الأمورِ في نِصابِها الحَقيقيّ.
كما أنَّ بعضَ صـيحاتِ الأزْياءِ التي تُضفي ألوانًا جذّابةً وغيرَ مُحْتَشَمَةٍ على كِلا الجنسينِ أخـذتْ تلعـبُ دورَها في تفتيتِ القواعـدِ والثوابتِ التي يَعْتَنِقُها الناسُ، فَزَعْزَعتْ نفوسًـا، وأيقظتْ شهواتٍ من مكمنِها، وَخَدَعَتْهَا بِحِياكَةِ الغَدْرِ والخَتْلِ؛ لِتُفْرِغَ – إرضاءً لِنزوتِها – مَا تَكْبتُهُ من دونِ عقلٍ ولا رَوِيَّةٍ!

٨- في رحابِ طَيبةَ

مضتِ الأيامُ إلا أنَّ الذِّكرياتِ معها تَأبى إلا أنْ تُعيدَ نَفْسَها في رَوْعِ أصحابِها خَاصّة عندَما يَلتقِي أبطالُها بَعْدَ غِيابٍ طويلٍ، وفي ظروفٍ جديدةٍ!
بل ورُبَمَـا يكونُ للّقاءِ الجديدِ طَعْمُهُ الخاصُّ، ولونُهُ المُمَيَّـزُ عندَما تَتَجَدَّدُ المعطياتُ، وهَذَا بالفعـلِ مَا جرَى عندَما شـاءتِ الأقـدارُ وعلى بُقْعَةٍ من أطْهرِ البِقاعِ علـى وجْهِ الأرضِ أنْ يَلْتَقِي باقرٌ مع سلوى على أرضِ المدينةِ المنوّرَةِ مرّةً أخرى، ولكن في حُلَّةٍ جديدةٍ!

❖ ❖ ❖

رجعَ باقرٌ إلى مقرِّ سكنِهِ في المدينةِ المنوَّرَةِ بعدَ زيارَةِ حَرَمِ النّبيِّ ﷺ، وراحَ ينتظرُ المِصعدَ الكهربائيَّ؛ ليصعدَ إلى غرفتِهِ.
وما هي إلا دقائقُ حتى وصلَ المِصعدُ حيثُ يقفُ باقرٌ، فانفتحَ بابُه وانتظرَ جانبًا ليُفْرِغَ من راكبِيهِ، وكانتِ المفاجأةُ!
لقد أتاهُ صوتٌ أنثويٌّ على استحياءٍ قائلاً: السلامُ عَليكم يا مهندسُ باقرٌ.
فَرَدَّ التَّحيّةَ بِمِثْلِهَا، وبِسُـرعَةِ البرقِ عَرَفَ صـاحِبَةَ الصـوتِ، وتسـاءَلَ في نفسِـهِ: هَلْ مِنَ المعقولِ أنْ تكونَ سلوى؟!
فأدارَ بِوجهِهِ جِهةَ صاحِبَةِ الصوتِ وإذا بِهَا سلوى بِالفعلِ ماثلةً أمامَهُ بهيْئَةٍ وصورَةٍ تختلفُ تَمَامًا عَمَّا كانت عليهِ من ذِي قبلٍ.

وهنا بادرتْ إحدى النِّساءِ بالقولِ - ويبدُو عَلى مُحَيَّاهَا أنَّها في الخَمسيناتِ من عُمْرِهَا -:
أَهَذَا هُوَ المهندسُ باقرٌ الذي كُنتِ تَتَحدَّثِينَ عنهُ؟
- نَعَم يَا أُمَّاهُ.
فالتفَتَتْ الحاجَّةُ نَحْوَ بَاقِرٍ، وقالتْ: جَزاكَ اللّهُ خَيْرًا يَا بُنَيّ، فلقدْ رَسَمْتَ طَرِيقًا لابنتِي، وأيقظتَ فيها الشعورَ بالذَّنْبِ على ما مَضَى من أيَّامٍ خَلَتْ، وَهَا هِيَ تَعُودُ وَرْدَةً نَدِيَّةً بَعدَ رِحلةِ عَذَابٍ مُضْنِيَةٍ بينَ الماضِي وبينَ الوُقوفِ مَعَ النَّفْسِ مَوْقِفَ المُحَاسِبِ، فانتصرتْ المبادِئُ كَأَحْلَى مَا يكونُ على يديكَ، وَهَا هِيَ هُنا مَعي تُريدُ أَنْ تُجدِّدَ عَهْدَهَا بالتوبةِ بين يَدَيِّ النَبيِّ الأعظمِ ﷺ؛ لِتنطلقَ نحوَ حَياةِ العقلِ البصيرِ بأمورِ الدِّينِ والدّنيا.
وخَشيةً مِن تَمادِي الأمِّ في طَرْحِ رِحلةِ المحاسبَةِ في مكانٍ عامٍّ، قَالتْ سلوى لباقرٍ: هل يُمكِنُنا الحديثُ حَولَ ذلك في وقتٍ آخر؟
- حسنًا.

٩- فرصةٌ بلا ميعادٍ

وفي ليلةٍ من ليالي المدينةِ المنوّرَةِ العامرةِ المباركةِ، وتحتَ أجواءٍ مُفعمةٍ بأشعّةٍ نَورانيّةٍ تَنبعثُ من ذلك الحَرَمِ النّبويِّ التي تُضيئُ الأرجاءَ، وتبعثُ معهَا الدِّفءَ الإيمانيَّ؛ لتملأَ القلوبَ بمعانٍ تأخذُ بِها نحو عنانِ السماءِ جلسَ باقرٌ مع سلوى وأمِّها يَتَجاذَبونَ فيما بينهمْ أطرافَ الحديثِ حتى قالتِ الأمِّ: لا زلتُ أقولُ لكَ يا بُنَيّ: جَزَاكَ اللّه خيرًا على ما صنعْتَهُ من تَحَوُّلٍ في حياةِ ابنتِي، ولو كان أَبُوها على قيدِ الحياةِ لكان أشدَّ فرحًا منِّي بابنتِهِ، فلقد صنعتَ يا بُنَيّ ما عَجَزَ عنهُ هو حتَى تَوَفَّاهُ اللّه.
- لم أصنعْ شيئًا يا عمّةُ، وإنَّما هي إرادةُ سلوى التي أرادتِ التّغييرَ، فانتصرتِ المبادِئُ في عقلِها، بل في كلِّ كيانِها.
فأخذتْ سلوى بِزَمَامِ الحديثِ، وقالت: أعرفُ أنَّكَ تتوقُ إلى سماعِ عمليّةِ التَحوّلِ في حياتِي.
فسأطلعُكَ على أهمِّ محطّاتِها، لترَى كَيفَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(١٢).

إنّنـي لمّـا خرجتُ من مكتبِـكَ في ذلكَ اليوم الذي بـدأتُ فيه رحلةَ العـودةِ إلى قِيمِ الدِّين شعرْتُ بأنَّ السنواتِ الخواليَ كانت سرابًا وشبحًا مُخيفًا، وكُنتُ في سباتٍ عميقٍ، وشعرتُ حينَها بأنّني صـفراءُ اليدين، وأنَّ سـاعةَ الرّحيلِ من هذهِ الحياةِ بـين قـابَ قـوسـين أو أدْنَى إذْ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِـبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١٣)، فصـرتُ أُخيِّرُ نفسِي بين الجَنَّة والنَّارِ، ووجدْتُ أنَّ طريقَ كلٍّ منهما محفوفٌ بالنَّصَـبِ والتَّعَبِ، فَوَزَنْتُ الأمرينِ بميزانِ العقلِ أيّامًا حتى حانتْ لحظةُ الصفرِ والبدايةِ الواعيـةِ حيثُ كنتُ أقرأُ في إحدى الصُّـحفِ عن صـرعى الانترنت وإذا بـي أجدُ حوادثَ يَتَنَـدَّى لها جبينُ الإنسـانيّةِ عَرَقًا، وكيف أسـلمَ أصـحابُها أرواحَهُم خَائِـرِي القوى بتلك الهيئةِ المخزيةِ الفاضـحَةِ، وأصـبحوا جُثَثًـا هَامدةً عاريةً أمام مَـرْأى أولئكَ الذِّئابِ، ولم يمتلِكُوا والحالُ هَذِه أنْ يَمنعُوا رَدَّ القضاءِ عنهُم!

فاضـطربَتْ مشـاعِريّ، وبَقيْتُ أُرَدِّدُ تلك الأدعيةَ التي كُنتَ تَقرؤُها في مكتبِكَ ذلك اليوم حيثُ وجدتُها في كتابِ (مفاتيحُ الجِنان)؛ لأنَّها تَرْسِمُ الطريقَ بجلاءٍ لبني البشرِ، والدَّربَ الذي سيسلكونَه راغمين!!

وفي مغبّةِ كلِّ هَذِهِ الظروفِ، وكسـبًا للوقتِ والعمرِ الفاني، ورجوعًا إلى الأصـالةِ والجُذُورِ كان القرارُ الذي أرضى القلبَ، وأغاظ النَّفسَ اللّوّامةَ.

- شيءٌ جميلٌ هذا الذي أسمَعُهُ، ولكن أين تعملينَ الآنَ؟

فابتسمتْ، وقالتْ: هل تَذْكُرُ الآيةَ التي رَدَّدْتَها حين أَنْبأتُكَ بقرارِ إقالتِكِ، وَهِيَ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ❖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

- نعم، بكلِّ تأكيدٍ!

- لقـد كانـتْ نَفسُ هَذِهِ الآيةِ هِيَ النّـورُ الذي أنارَ دَرْبِي، فَتَوكّلْتُ علـى اللهِ تَعَالى، وَتَرَكْتُ الماضِي بآلامِهِ وراءَ ظَهرِي، وبَدَأتُ حَاضِرًا مُطمئِنًا يَرضاه رَبِّي، ورسمْتُ مُستقبلاً - أَتَمَنَّى من صميمِ قلبِي أَنْ يُعِينَنِي اللهُ سبحانَه على تحقيقِهِ - بَعدَما انفرطَ عقدُ الماضِي بيديّ. فمنذُ أنْ عقدتُ العزمَ على التّغيير وإذا بنِعم اللهِ سبحانَه تَتْرَى أكثرَ من ذِي قبلٍ، وتَوظَّفْتُ في إحدى الشـركاتِ في أجواءٍ ملتزمةٍ، وفي مجال عملٍ يُناسِـبُني كامرأةٍ مسـلمةٍ متمسِّكَةٍ

بأوامرِ ربِّي، وانتظمتُ بأفضل ما يكون لحياتي ودِيني.
- أودّ أنْ أسألَ سؤالاً طالَما حيَّرني، حيث بحثتُ عن الإجابةِ، فلمْ أهتدِ إليها.
- تَفَضّلْ، سَلْ!
- هَل كنتُ أنا سببًا في إثارَةِ مشاعِرَكِ في تلك الأيامِ العِجافِ؟
فابتسمت سلوى، وقالت: وَهَلْ تظنُّ أنَّ أكثرَ الرِّجالِ أبرياءُ في مثلِ هذه المواقفِ؟
- لا، لا أُنْكِرُ ذلك!
فالأكثرُ مِنَ الرجالِ ليسوا فوقَ الشُّبُهاتِ، بل ليس الرُّجالُ معصومينَ، كما أَنْتُنَّ أيّتها النّسوةُ كذلك غَيرُ معصوماتٍ عن الخَطأِ والزَّلل.
فقد يَنْجَرِفُ الصالحُ مِنَّا، وتُحَدِّثُهُ نَفْسُه بالخَطَايا، فَينجحُ في الأوبةِ إلى رشدِهِ وطريقِ الصوابِ، وقد تجرفُهُ الأمواجُ العاتيةُ لارتكابِ أفضعِ الجرائمِ والموبقاتِ!
فقالت سلوى بِلغةِ الحاسمِ: وهلْ تبرِّئ نفسَكَ ممَّا جَرَى؟
فَتَلَعْثَمَ باقرٌ، وقالَ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١٤)

ولكن أَخبرينِي، كَيفَ كانت لي يدٌ في ذلك؟
فقالت سلوى باسمةً وهي تنظرُ إلى عينيّ أُمِّها التي علمتْ بخفايا الأمرِ سلفًا: لقد كانت رسائِلُك التي تبعثُ بها إليّ؛ لدفْعِ عَجَلَةِ العملِ إلى الأمامِ تحملُ معها معانيَ تجعلُ مَن هِيَ في مَحَلِّي تَطيرُ بل وتحلِّقُ في أحلامٍ ورديّةٍ فوقَ السحابِ.
فقال باقرٌ باستغرابٍ: ولكنَّها كانتْ تخصُّ العملَ لا غير.
- صحيح أنَّها تخصُّ العملَ، ولكنّ بعضَ كلماتِها كانت تُرسِلُ إشاراتٍ، وتَحْمِلُ مغزىً غَير الذي يَخصُّ العملَ!

كما أنَّ وقتَ إرسالِها كان له هو الآخر إيحاؤُه كنصفِ اللّيلِ، أو عندَ الفجرِ.
فذهلَ باقرٌ ممّا يَسمعُهُ، واكتشفَ بأنَّهُ لم يكنْ يحسبُ لهذا الأمرِ حسابَهُ، وكان يخالُ أنَّ ذلك نوعٌ مِنَ التَّواصلِ الوَظيفيِّ بين الموظَّفِ ومسؤولِهِ نَحوَ الارتقاءِ بالعملِ.

لم يكـنْ يعلمُ أنَّ تلك الرّسـائلَ المتكرِّرَةَ سـتفتحُ بابًا لم يُفَكِّرْ في عواقبِـهِ، فأَذْعَنَ بين يديّ سلوى بالخَطَأ، وقال: مهما كانت مبرّرَاتِي، فَإنِّها لن تقوَى على لجمِ الحقيقةِ القائمةِ، ومَا آلت إليهِ من نتائجَ، ونبقى معَ كلِّ هذا بشرًا خطّائين.
وبدا على محيّاه الألمُ والامتعاضُ.
وهنا تساءلت سلوى: لقد قلتَ يا باقرُ بأنَّ هناك مَن تجرفُهُ الأمواجُ العاتيةُ لارتكابِ أفضعِ الجرائمِ، فَمَنْ تقصدُ بذلكَ؟

هل تقصـدُني أنَا بالذّاتِ حيثُ سـوَّلَتْ لي نفسِـي، وأعمتْ بصـيرتِي، فسـعيتُ في خَرابِ مستقبلِكَ ودَمَارِ بيتِكِ، وقَطْعِ رِزْقِكَ؟
صَدِّقْني، لقد تألّمْتُ كثيرًا بعد إنابَتِي ممّا جَرى، ولو كان بيدِي لأرجعتُ الأمورَ إلى نِصابِها ولكنْ سبق السيفُ العذل.
فابتسم باقرٌ، وقال: قَدَّرَ اللّهُ، وما شاءَ فعلَ.

وأعتقـدُ بأنَّ مسلسـلَ الأحداثِ مـا هو إلا تدبيرٌ من اللّهِ سـبحانَه؛ لألقـاكِ وبعد كلّ هذه الفـترةِ وأنـتِ في لباسٍ ملائكيٍّ مُجَدِّدَةً العهدَ على التَّوبَةِ والإنابةِ بين يديّ صـانعِ الأجيال النّبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله .
- إذًا ما الذي كنتَ تَرمِي إليه بكلامِكَ؟
- إنَّنِي أَرْمِي بِكلامِي إلى استنطاقِ التّاريخِ لأخذِ العِبرَةِ منهُ، وأنْ لا نغترَّ بالإنسانِ ومظهَرِهِ، إذ مَا يُهمّنا هو مَخْبَرُه، وتقواه!
- لم أُدرِكْ بعدُ ما تودُّ الوصولَ إليهِ.
- أقصدُ أنَّه كان في بني إسرائيلَ عابِدٌ اسمُه (برصيصا)، عبدَ اللّهَ زمانًا مِنَ الدّهر حتى كان يُؤتَى بالمجانين يُداويهم، ويُعَوِّذُهُم فيَبْرؤون على يدِهِ – بأمرِ اللّهِ سـبحانَه -، وإنَّه في يـوم أُتِي بامـرأةٍ قد جُنّتْ وكانَ لَها إخوةٌ، فأَبقوْهَا عندَه، فلم يزلْ بهِ الشـيطانُ يُزيِّنُها لَه في عينِهِ وقلبِهِ، حتّى وقعَ عليها فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا اسـتبانَ حملُها قتلَها ودَفَنَها خوفَ الفضيحةِ والعارِ، فَلمَّا فَعَلَ ذلك ذهبَ الشـيطانُ حتى لَقِي أحدَ إخوتِها فأخبَرَهُ بالذي فَعَلَ الرَّاهِبُ،

وأنَّـهُ دَفَنَها في مكانٍ كـذا، ثُمَّ أتى بقيَّةَ إخوتِها رَجلاً رَجـلاً، فَذَكَرَ ذلك لَه، فجعلَ الرّجلُ يَلقَى أخاهُ، فيقولُ: واللّه لقد أتَاني آتٍ ذَكَرَ لي شيئًا يَكْبُرُ عليَّ ذِكْرُه، فَذَكَرَهُ بعضُهم لبعضٍ حتى بَلَغَ ذلك مَلِكَهُم، فَسَـارَ المِلكُ والناسُ، فاستجوبُوا الرّاهبَ، فأقرَّ الرّاهبُ لهم بالذي فَعَلَ، فأمَرَ المِلكُ بهِ من ساعتِهِ فَصُلِبَ، فَلمَّا رُفِعَ على خشبَتِهَ تمثَّلَ له الشيطانُ، فقال: أنا الذي ألقيتُكَ في هذا، فهل ستُطِيعُني فيمَا أقولُهُ لكَ؛ كي أخلِّصَكَ مِمَّا أنتَ فيهِ؟

قال الرّاهبُ: نَعم!

فقال الشيطانُ: إذًا اسجدْ لي سجدةً واحدةً.

فقالَ الرّاهبُ: كيف أسجدُ لكَ وأنا على هذه الحالةِ؟

فقال: أكتفِي منكَ بالإيماءِ!!

فأومَأَ ذلك الرّاهبُ للشيطانِ بالسجودِ، فكفرَ باللّهِ (١٥).

وهنا تدَخّلَتْ أمُّ سـلوى قائلةً: نعوذُ باللّهِ من شـرورِ أنفسِنا، والحمدُ للّهِ فإنّنا لم نصلْ إلى ذلك الحدِّ، ولن نصلَ إنْ شاءَ اللّه.

ثم تَوجّهتْ نحو ابنتِها، وقالتْ بحنانٍ ضـارعةً إلى اللّهِ: أدعو اللّهَ أنْ يأخذَ بيدِنا إلى سواءِ السبيلِ.

وكما آبتْ ابنتِي إلى رشـدِها وصـوابِها بتوفيقٍ منه سبحَانَه، فَأصبحتْ فتاةً صالحةً أدعوه أنْ يمنَّ عليها بمَنْ يملأُ عليها حياتَها قبل أنْ أرحلَ عن هذِهِ الحياةِ.

فأحمـرَّ وجـهُ سـلوى خَجَلاً، ولزمـتِ الصـمتَ، وتقاطـرَتْ دموعُها من عينيهـا من دونِ استئذانٍ.

فحدّثَ باقرٌ نفسَـهُ، وهو الذي يرى أنَّ اسـتثمارَ الصـلاحِ بات وشـيكًا، خاصّة وأنَّ سلوى تمتلكُ من المؤهلاتِ ما يَطمحُ إليها أيُّ شابٍ قَائِلا: مَاذا لو خَطبتُ ودَّها وإلفها؟

أليستْ الآن كما أتمناها؟

ولكن كيفَ لي أنْ أخطبَها، والأمرُ في غايةِ الحرجِ الآنَ؟

سأتْرُك تدبير ذلك إلى القضاءِ والقدرِ، فإذا كانت من نصيبِي فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وإذا لم تكنْ كذلك، فأمرِي وأمرُها إلى اللّهِ سبحانَه.

١٠- ختامُها مسكٌ

ما أجملَ لحظاتِ الشُّعورِ بطعمِ العبادَةِ في القلبِ، ومَا أروعَ ساعاتِ المناجاةِ على رُبى الأولياءِ، ومَا ألذَّها من ساعاتٍ مُفعمةٍ بمناجاةِ اللّهِ سبحانَه بين يديّ رسولِهِ الكريمِ ﷺ، وكم هِيَ فرصةُ عُمْرٍ ثمينةٍ تلك التي يغتنمُها العبدُ، فينأى بروحِهِ إلى اعتناقِ واحتضانِ تلك الشحناتِ الإيمانيّةِ التي تَغْسِلُ وتُصفّي القلبَ، فتأخذُ بِهِ نحوَ عالمٍ كلُّ ما فيهِ جميلٌ وأخّاذٌ وجَذّابٌ.

❖ ❖ ❖

لقد جلسَ باقرٌ في ليلةِ جمعةٍ من ليالي المدينةِ المنوّرَةِ وقد أطلقَ العنانَ إلى قلبه للتدبُّر، ولسانَهُ إلى الذِّكْرِ، ودموعَهُ إلى أنْ تغسلَ أدرانَ ما عَلقَ مِن محطّاتِ هذه الدنيا الفانيةِ.

وأخذَ يُردِّدُ بصوتٍ متهدِّجٍ: (اللّهم، عَظُمَ بلائِي، وأفرطَ بي سوءُ حالي، وقَصُرتْ بِي أعمالي، وقعدَتْ بِي أغلالي، وحبسَنِي عن نَفْعِي بُعد أَمَلِي، وخدعتْنِي الدّنيا بغرورِها، ونفسِي بجنايتِها، ومطالي يا سيّدي، فأسألُكَ بعزّتِك أنْ لا يَحْجُبَ عنكَ دُعائِي سوءُ عملِي وفعالِي، ولا تفضحنِي بخفِيِّ ما أطّلعتَ عليهِ من سرِّي، ولا تُعاجلنِي بالعقوبَةِ على ما عَمِلتُهُ في خلواتِي، من سوءِ فعلِي وإساءتِي، ودوامِ تفريطِي وجهالتِي، وكثرةِ شهواتِي وغفلتِي).

وبينما هو مستغرق في دعائِهِ إذْ قطعَ عليهِ لذيذَ مناجاتِهِ ودعائِهِ أحدُهُم بإلقاءِ التّحيّةِ، فردّ عليه بأحسنَ منها.

وما أنْ استدار جهَةَ صاحبِ الصوتِ حتى قام على رجليهِ، وابتسامتُه لا تفارقُ شفتيهِ، وقال: مَنْ، المهندسُ قاسمٌ بشحمِهِ ولحمِهِ؟

إنَّها لفرصةٌ سعيدةٌ وبعدَ كلِّ هذِهِ السنواتِ أنْ أرَى أصدقاءَ العملِ على هذه البقعةِ المباركةِ!

فقال قاسمٌ: وكيف هي أمورك الآن وبعدَ أنْ أُقلتَ من عملكَ؟

- الحمدُ للّهِ، فلو أنَّ الإنسانَ اعتمد على نفسه من دونِ التّوكُّلِ على اللّهِ سبحانَه لَمَا استطاعَ أنْ يقفَ على رجليه مرّةً أخرى.

وكان مِن ضمنِ طيّاتِ حديثِهِ مع صديقِهِ قاسمٍ أنْ أشارَ إلى رحلة البحثِ عن عملٍ، وكيف أنَّ اللّه سبحانَه في عون العبدِ دائمًا وأبدًا، وأنَّه الآنَ وبعدَ رحلةِ العذابِ تلك قد أصبحَ المديرَ المساعدَ في إحدى المؤسّساتِ الكبيرةِ والفاعلةِ في البلادِ، والتي تقومُ على سواعدَ وطنيّةٍ في جلِّ مواقعِها.

وراحت الذّكرياتُ ترتطمُ في أذهانِهما كالطوفانِ، حتى قال قاسمٌ: سبحانَ اللّه، إنَّ الدنيا كلَّ يومٍ هِيَ في شأنٍ!

فقال باقرٌ باسمًا: هل عندَك ما تخفيهِ؟

فقال قاسمٌ: أتَتَذَكَّر سلوى تلك الفتاة المسؤولة في المؤسّسة السّابقة؟

فأجاب باقرٌ وكأنَّه لا يعرف شيئًا عنها: نَعم، وما شأنُها؟

- لقد رأيتُها اليومَ وقد تغيَّرتْ عمّا كانت عليهِ، وأصبحتْ فتاةً ملتزمةً بِما للكلمةِ من معنى.

فاقتضب باقرٌ الحديثَ حولَها بكلامِه قائلاً: وفّقَها اللّهُ.

وحاولَ تغيير دفَّةِ الحديثِ بالقولِ: وكم ولدًا لديك الآن يا قاسمُ؟

إلا أنَّ قاسمًا لم يدعْهُ يُغيِّرُ الموضوعَ، فقال: لديَّ ولدانِ وبنتٌ واحدةٌ.

وأنت يا باقرُ: ألم يحنْ وقتُ زواجِكِ؟

فلقد آن الأوانُ حتى تُكملَ نصفَ دينِك!

فقال باقرٌ مازحًا: وهل سيكونُ ذلك على يديكَ؟!

وأخذَ يُقهقِه!

فأجابه قاسمٌ بِحماسٍ: نَعم، سيكونُ ذلك على يَديَّ، ولن أدعَ الفرصةَ تفوتُ؛ لأنَّ (إضاعة الفرصةِ غصّة)!

- ما الذي تقصدُهُ يا قاسمُ؟

- أقصدُ بأنَّ اللّه سبحانَه جعلَ الأسبابَ والمسبّباتِ، وها هي الفرصةُ أمامَكَ لاقتناصِها!

- بَدأتَ يا قاسمُ بطرحِ الأحاجِي!

- لا أطرح ألغازًا، وإنّما أقول لك: (الفرصةُ تمرُّ مرَّ السحابِ، فانتهزوا فُرصَ الخيرِ)!

- لقد زِدتَ الأمرَ تعقيدًا!
- لِماذَا لا تُتوِّجُ هذه الرِّحلَةَ الإيمانيّةَ هنا بأكليل زاهٍ بالحبِّ والإيمانِ، فتدخلُ المملكةَ الورديّةَ مِن أوسعِ أبوابِها؟
فها أنتَ شابٌّ مؤمنٌ ومقتدِرٌ، ولا تنقصُكَ سوى امرأةٍ؛ لِتكملَ نصفَ دينِكْ.
- هُنَا؟
ثم هل شريكة العُمر المُفترضَةُ موجودةٌ هُنا؟!
- نَعم!
- ومَن هِيَ؟
- إنَّها التي اقتضبتَ الحديثَ عنها.
إنَّها سلوى!
فقال مندهشًا: سلوى؟!
- نعم سلوى!
- ولماذا سلوى بالذّاتِ؟
- لأنَّ مَن تعرِفُهُ خيرٌ ممَّنْ لا تَعْرِفُهُ.

فابتسم باقرٌ، وقال في نفسه متسائلاً: هل ستكونُ سلوى من نصيبِي؟
وبدا بعدَها مضطربًا قليلاً، ولكنَّه ثابَ وعادَ إلى هدوئِهِ، وقال: لقد كانت رحلتِي إلى هذه الدّيارِ المقدّسَةِ رحلةً جميلةً بكلّ معانيها، ولا بأسَ أنْ أتوّجَها بأجملِ شيئٍ في الحياةِ، ولكن يا قاسمُ، أليسَ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلى تَرَوٍّ، وإلى معرفةِ رأيِ سلوى في ذلك أيضًا.
- يا بَاقرُ، إنَّ خيرَ البرِّ عاجِلُهُ.
- كيف، وإنَّنا نحتاجُ إلى إذنٍ من وليِّها على فرض قبولِها بالزّواجِ!
- الذي أَعْرِفُهُ – يا صاحِبي - أَنَّنَا قد حضرنا في يوم من الأيامِ مجلسَ عزاءٍ على جدِّها لأبيها حينما كانت مسؤولةَ قسمِنا أَبَّانَ إقالتَك، وقبل مُغادرتِها هِيَ لمؤسستِنا.
فبادرَ باقرٌ بالقولِ: كما أنَّ أبَاها قد رحل عن هذه الحياةِ حسبما أعلمُ!
- معنى ذلك أنَّها مالكةُ أمرِهَا كما هو حُكمُ الشرعِ في مثل حالتها هَذِهِ (١٦)!

فابتسم قاسمٌ، وقال: هل أكونُ حمامةَ سلامٍ ووئامٍ وانسجامٍ؛ للتَّوفيقِ بين رأسينِ في بقعةٍ من أشرفِ بقاعِ الأرضِ؟

فقال باقرٌ متردِّدًا: ولكن!

- يا أخي، توكَّلْ على اللهِ سبحانَه، ولنْ تجدَ فرصةً سانِحةً أفضلَ من هذِهِ.

- إذًا توكَّلْنا على اللهِ سبحانَه.

وافعل كلَّ ما فيه صلاحٌ لترتيبِ الأمرِ.

❖ ❖ ❖

مضى قاسمٌ نحو تنفيذِ مشروعٍ يهدفُ إلى ربطِ قلبينِ برباطٍ مقدَّسٍ، فالتقى سلَوى معَ أمِّها، وبعد سلامٍ وكلامٍ طرحَ عليهما الموضوعَ قائلاً: أليسَ زينةُ الرّجلِ والمرأةِ على السَّواءِ أنْ يُتوِّجَا حياتَهما بالزّواجِ؟

فقالت أمُّ سلوى: نَعم يا بنيّ.

إذًا ما رأيكِ يا أمَّ سلوى في رجلٍ يعتزمُ أنْ يتقدَّمَ لكما؛ كي يخطب ودَّ سلوى على أرض طَيْبةِ الخيرِ هَذِهِ؟

فلاذتْ سلوى بالصمتِ خَجِلةً.

فقالت أمُّها: هذه أسعدُ لحظاتِ أيِّ أمٍّ في هذه الدنيا!

ولكن مَنِ الخاطِبُ؟

وهل هُوَ على دِينٍ وخُلقٍ؟

فقال قاسمٌ: لا شكَّ في ذلك، فمادامت سلوى هي جوهرةٌ مصونةٌ، فيجبُ أنْ يكونَ خاطِبها ممّن يحفظونَ مثلَ هذِهِ الدُّرَّةِ المكنونةِ.

- ولكنْ!

- لمَ التّردُّدُ؟

فإنّ رسولَ الله ﷺ الذي نحن في ضيافتِهِ قد قالَ: (إذا جاءَكم مَن ترضونَ خُلُقَهُ، ودينَهُ، فَزَوِّجُوه ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾) (١٧).

- أقصدُ، مَن يكونُ الخاطبُ؟
فقال قاسم: إنَّه المهندسُ باقرٌ!
فانفرجت أساريرُ أمِّ سلوى، كما احمرَّ وجهُ سلوى خَجَلاً.
فتابع قاسمٌ قولَه: ما تقولانِ؟
هل نقولُ: على بركةِ اللّهِ؟
فقالت أمُّ سلوى مسرورةً: ولكن كيف نُجري الأمورَ هُنا؟
- سنتكفّلُ بالأمرِ، على أنْ سيكونَ عقدُ القِران هنا فحسب استثمارًا لمثلِ هذه الأجواءِ المفعمةِ بالإيمانِ.
نعم سيكونُ إشهارُ العقدِ على هذه الأرضِ الطّيبةِ طيّبةَ – إذا ما تمّت الموافقةُ -، وما هذا سوى مقدّمةٍ إلى الاحتفالِ الذي سيقيمه باقرٌ إلى زوجةِ المستقبلِ بين ذويها وذويه على أرضِ الوطنِ ريثما يعودون؛ لتعمَّ الفَرْحَةُ، وتشيعُ البهجةُ في أوساطِهم جميعًا.

ثم أبَان لهما ما جرى بينه وبين المهندس باقرٍ، فقالت الأمُّ: لا أقول سوى على الرَّحبِ والسّعةِ.
- هذا من طيبِ أصلِكِ يا أمَّ سلوى، ولكن أودُّ سماعَ رأيِ سلوى بالذّاتِ، فهي صاحبةُ الشّأنِ، والرّأيِ الأولِ والأخيرِ في هذا الموضوع، أليس كذلك يا سلوى؟
حاولت سلوى أنْ تتحدّثَ، ولكنّ الفتاةَ في مثل موقفِها هَذَا تموتُ الكلماتُ على شفتيْهَا، فأطرقتْ برأسِها صامتةً مبتسمةً.
أمّا أمُّها فَلم تتمالكْ نفسَها من شدَّةِ الفرحِ، فقالت: يَا بُنيّ، وهل تُريدُ جوابًا من فتاةٍ في مثلِ هذا الموقفِ أبلغُ من سكوتِها؟
أليس سكوتُ البِكر رضاها؟
- إذًا على بركةِ اللّهِ.

❖ ❖ ❖

يومًا بعد آخر تترسّخ مفاهيمُ أهلِ البيتِ عليهم السلام في النُّفوسِ لأصالتِهَا ونقائِها، وتشرقُ مبادئُهم الساميةُ؛ لتضيئَ طريقَ المؤمنين بمشاعلَ من نورٍ.
فهيَ الأيامُ تُطوى، وتختزلُ معها الذّكرياتِ، ولا تبقى غيرُ تعاليمِهم عليهم السلام رابضةً في قلوبِ العاشقين إذْ ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾(١٨).

فهم الذين أرسوا معانيَ (رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ تباركَ وتَعَالى)، بل وهم الذين بلوروا في وعي الأمّةِ أنَّ (مَن تركَ معصيةً للهِ مخافَةَ اللهِ تباركَ وتعالَى أرضاه اللهُ يومَ القيامةِ)(١٩)؛ لتجدَ هذهِ الأمّةُ بركاتِ الانقيادِ إلى اللهِ سبحانَه وتَعَالى.

بل حتى أولئك الذين جَنَحَتْ بهمُ الحياةُ بشهواتِها، فَحَرَفَتْهُم عن الجادّةِ، وأضاعُوا الطَّريقَ زمانًا يُمكنهم الإنابَةُ والأوْبَة حيثُ ﴿مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ❖ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ❖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ❖ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾(٢٠).

كما وغرسُوا مفهومًا واضحًا يُؤتِي ويُعطي أُكُلَهُ وثمارَهُ كلَّ حينٍ بأنَّ (كلَّ يوم لا يُعصى اللهُ فيهِ، فَهُوَ يومُ عيدٍ)(٢١)، وهلْ هناك عيدٌ وفرحٌ كعيدِ وفرحِ المؤمنينَ الذين ينتهلونَ آلاءَ اللهِ ونعمَهُ من نميرِ أجواءِ تلك الرّحابِ المحمديَّةِ التي تفيضُ سِحرًا وجمالاً رُوحيًّا على تلك الأفئدةِ الوالهةِ؟!

وهل هناك أكثرُ فرحًا من باقرٍ وسلوى اللّذين سيُصبحانِ بين قاب قوسين أو أدنى زوجينِ بعد رحلةَ التّعبِ والمشّقَةِ؟

لقد تمّت الاستعداداتُ المتواضعةُ لاستقبال الضيوفِ، وإنْ هيَ إلا سويعاتٌ حتّى امتلأتِ

القاعـةُ بالمهنِّئـينَ في أجواءٍ بهيجةٍ، فقامَ الشـيخُ مرشـدُ الحَمْلَةِ بإنجازِ مراسـيمِ العقدِ الشَرعِيِّ.

❖ ❖ ❖

وهكذا كانت الأسـبابُ والمسبّباتُ، وأصبحت سـلوى زوجةً لباقرٍ بشرعِ الله سبحانَه وسنّةِ رسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

وما أنْ خَلا بِها كشفَ عن وجهِها مبتهجةً، وأخذَها جهةَ النّافذَةِ، وأزاح ستارتَها، فأشرقَتْ غرفتَهُمـا بتلكِ الأنـوارِ المتلألِئةِ من ذلك الرِّحـابِ النّبويِّ الطّاهـرِ، وخاطبها بكلِّ دفءٍ وحنانٍ: أليسَ هذا خيرًا ممّا كنتِ تريدينَ من قبلُ يا سلوى؟
فتورّدَتْ وجنتاها، ولاذت بالصمتِ مبتسمةً.

الهوامش

(١) الطلاق: ٢-٣.

(٢) السَّمُّ: الثَّقْبُ. وسَمُّ كلِّ شيء وسُمُّه: ثَقْبُه، والجمع سُمُومٌ، ومنه سَمُّ الخِيَاط. وفي التنزيل العزيز: حتى يَلِجَ الجمَلُ في سَمِّ الخياط.

(٣) تفصد عرقًا: سَال عرقه، تشبيهًا بكثرته بالفصاد. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٥٠، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة ١٣٦٤ ش، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم – إيران.

(٤) بحار الأنوار ٤٨/ ٢٣٨، العلامة المجلسيّ، تحقيق: محمد مهدي السيد حسن الخرسان، محمد الباقر البهبودي، السيد إبراهيم الميانجي، الطبعة الثالثة المصححة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، بتصرف.

(٥) جمح الفرس جموحًا وجماحًا إذا اعتز فارسه وغلبه، فهو فرس جموح. الصحاح ١/ ٣٦٠، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.

(٦) روضة الواعظين، ص٤٤١، الفتال النيسابوري، تحقيق: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم – إيران.

(٧) آناه يؤنيه إيناء: أخّره، وحبسه، وأبطأه. الصحاح ٦/ ٢٢٧٣، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت ٠ لبنان.

(٨) فتر: سكن.

(٩) يظهر.

(١٠) وهو قُضْبان مجتمعة كل قضيب منها ملآنُ ما بين أعلاه وأَسْفَلِه شَوْكاً. وفي المثل: من دون ذلك خَرْطُ القَتاد.

(١١) خَتل: تخادع عن غفلة. كتاب العين ٤/ ٢٣٨، الخليل الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، الدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ، مؤسسة دار الهجرة.

(١٢) الرعد: ١١.

(١٣) لقمان:٣٤.

(١٤) يوسف:٥٣.

(١٥) بحار الأنوار ١٤/ ٤٨٦، العلامة المجلسيّ، تحقيق: عبد الرّحيم الرباني الشيرازي، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، بتصرف.

(١٦) س ٥٥٢: متى يمكن أنْ تتزوج الفتاة بدون إذن الولي...؟

ج: إنّما يجوز أنْ تزوِّج نفسها مع البكارة إذا لم يكن للفتاة أبٌ أو جدّ للأب، وكانت بالغة عاقلة... فقه المؤمنات من صراط النّجاة طبقًا لفتاوى الميرزا الشيخ جواد التبريزيّ، ص٢٠٢، س٥٥٢، جمع وإعداد: منصور الجشيّ، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، مكتبة فدك، قم – إيران.

(١٧) الكافي ٥/٣٤٧، الشيخ الكليني، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلاميّة، طهران – إيران.

(١٨) الرعد: ١٧.

(١٩) الكافي ٢/ ٨١، ، الشيخ الكليني، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثالثة ١٣٦٧ ش، دار الكتب الإسلاميّة، طهران – إيران.

(٢٠) مريم: ٦٠- ٦٣.

(٢١) مستدرك الوسائل ٦/ ١٤٩، الميرزا النوري، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت – لبنان.

المجلس الإسلامي العلمائي
Olama Islamic Council
شعبة المناهج

من إصدارات المجلس الإسلامي العلمائي للتعليم الديني

احصل على نسختك الآن

الإسلامي

سلسلة مقرّرات الحلقة الأولى - الثانية (العربية - الإنجليزية)

للحصول على نسختك الإتصال:

المجلس الإسلامي العلمائي: ١٧٥٩٢٦٧٢ - للنساء: ١٧٥٩٢٦٧٣

في ساعةٍ من ساعاتِ اليقظةِ من سباتٍ قد خيّمَ على العقلِ فترةً، فجرَّها نحوَ الهمِّ بالخطيئةِ وتمرُّدِها على أحكامِ اللهِ، وخروجِها عن رِبْقَةِ العبادةِ هتفَ القلبُ بندائه في الأسماعِ، فأشرقتِ النّفسُ، وعادَ العقلُ إلى صوابِه.

الشيخ حسين الطويل

نرحب بتواصلكم معنا، وبكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم:
مبنى ٤٠ ، طريق ٤٨ ، مجمع ٤٤٤ ، تليفاكس: ١٧٥٩٢٦٧٢ ، الإدارة النسويّة : تليفاكس: ١٧٥٩٢٦٧٣
حلة العبد الصالح ، مملكة البحرين – الموقع الإلكتروني :www.olamaa.net البريد الإلكتروني :info@olamaa.net